

إشكالية الاحتذاء في المعنى الشعري
عند عبدالقاهر الجرجاني

الدكتور

صالح بن سعيد الزهراني

أستاذ مساعد بكلية اللغة العربية

جامعة أم القرى

ارتبط الشعر عند العرب - في أدق خصائصه - بالفطنة ، خصوصية النظر إلى الأشياء . فالشاعر عندهم لا يستحق هذا الوصف (حتى يأتي بما لا يشعر به غيره) (١) . وهذا الشعور الخاص يتأسس على قوتين اثنتين هما : (القوة التخيلية والقوة التأليفية) .

(بالقوة التخيلية) يتجاوز الشاعر حدود الزمان والمكان ، ويتخطى المؤلف الذي يقتل لذّة الأشياء إلى عالم أرحب فيه يعيد لمريثاته الفطرية ، والجدّة . وبالقوة التأليفية يصوغ الشاعر رؤاه في نسيج لغوي محكم يُعدّ الإبداع فيه ضرباً من الفطنة بصياغة الكلام . (والشعر هو ما إن عري من معنى بديع لم يعر من حسن الديباجة ، وما خالف هذا فليس بشعر .) (٢) .

ويسبب من الفطنة في تأمل الكائنات (القوة التخيلية) ، قُدم شاعر على شاعر ، لأنه يبتكر رؤاه ، ويعول في نظره على نفسه . فامرؤ القيس إنما قُدم على غيره من شعراء الجاهلية ؛ لأنه أول من وقف واستوقف ، وبكى واستبكى ، وشبه الخيل بالعصى ، وأول من قيد الأوابد ، وشبه الثغر في لونه بشوك السيّال ، والحمار بمقلّاء الوليد ، والطلل بوحي الزبور في العسيب ، والفرس بتيس الحُلب (٣) .

(١) - البرهان في وجوه البيان . أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم الكاتب ، تحقيق : الدكتور أحمد مطلوب ، والدكتورة : خديجة الحديثي ، بغداد : مطبعة العاني ، ط / ١ ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ، ص ١٦٤ .

(٢) - كتاب عيار الشعر - أبو الحسن محمد بن أحمد العلوي ، تحقيق : الدكتور عبدالعزيز المانع ، الرياض : دار العلوم ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ٢٤ .

(٣) - الشعر والشعراء . ابن قتيبة . تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، القاهرة : دار المعارف =

وما فُضِّل الفرزدق على جرير إلا لأنه كان يهجوهم بمعان يخترعها (١) .
وكان من أعظم هذه الابتكارات التي تتجلى فيها فطنة الشاعر ، وافتراعه لها
ما عرف (بالتشبيهات العقم) وهي تلك التشبيهات التي (لم يسبق أصحابها إليها ،
ولا تعدى أحد بعدهم عليها ، واشتقاقها فيما ذكر من الريح العقيم ، وهي لا تلقح
شجرة ، ولا تنتج ثمرة ، نحو قول عنزة العبسي يصف ذباب الروض :
وخلا الذباب بها ، فليس ببارح غرداً كفعل الشارب المترجم
هزجاً ، يحك ذراعاه بذراعاه قدَحَ المكبَّ على الزناد الأجذم . (٢)

ولكن معاني الشعراء ، ليست كلها من قبيل المبتكر الذي لم يُسبق إليه ، ففيها
ما يتوارد على الخواطر ، وتلهج به الألسنة . فالقريحة تكلّ ، والرؤى تتفاوت بتفاوت
حال النفس في تهيتها ونشاطها ، أو في فتورها وانصرافها ، والقدماء ذهبوا بكل معنى
فما ترك الأول للآخر شيئاً ، وهو ما عبر عنه عنزة بقوله :
هل غادر الشعراء من متردّم أم هل عرفت الدار بعد توهم (٣)

= ١٩٨٢ م ، ١ / ١٢٨ - ١٣٤ .

(١) - الموشح ، مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر ، أبو عبيد الله محمد بن
عمران المرزباني ، تحقيق : علي البحايي ، القاهرة : مطبعة لجنة البيان العربي ، الناشر نهضة مصر ،
١٩٦٥ م ، ص ١٩٨ .

(٢) - العمدة في محاسن الشعر وآدابه . الإمام أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ، تحقيق : الدكتور
محمد قرقران ، بيروت : دار المعرفة ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ١ / ٥٠٤ .

(٣) - ديوان عنزة : تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي بيروت : المكتب الإسلامي ط ٢ ، ١٤٠٣ =

وأكد كعب بن زهير عندما قال :

مأرانا نقول إلا رجيعاً ومعاداً من قولنا مكروراً (١)

وهذا الإحساس الذي لهج به عنزة وكعب يثير لنا قضية علاقة الشاعر بموروثه ، وثقافته أمته . تلك العلاقة التي كانت مدار جدل مثير في التراث النقدي والبلاغي يعرف بالبحث في (قضية السرقات) التي لانكاد نجد كتاباً في البلاغة والنقد حتى يكون لها فيه نصيب من النظر والتأمل .

ومصطلح السرقة ، مصطلح سيء السمعة في الغالب الأعم ، يوصف به شعر الشاعر الذي يتكئ على موروث من كان قبله من أرباب الكلمة ، ولهذا قيل عن السرقة : إنها (داءٌ قديم ، وعيب عتيق) (٢) وهذا الداء (لا يقدر أحدٌ من الشعراء أن يدعي السلامة منه .) (٣) .

كما أن هذا الداء يتفاوت في ظهوره وخفائه ، فمنه الواضح البين الذي يدل عليه اللفظ . ومنه الغامض المشكل الذي لا يبصره إلا حاذق بصناعة الشعر (٤) ،

= هـ / ١٩٨٣ م ، ص ١٨٦ .

(١) - شرح ديوان كعب بن زهير صنعة أبي سعيد السكري ، القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م ، ص ١٥٤ .

(٢) - الوساطة بين المتنبى وخصومه . للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ، تحقيق وشرح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، علي محمد البجاوي ، بيروت : دار القلم ، بدون تاريخ ، ص ٢١٤ .

(٣) - العمدة ٢ / ١٠٣٧ .

(٤) - المصدر نفسه ٢ / ١٠٣٧ .

يعرف أنفاس الشعراء في كلامهم ، فلا تختلط عليه الأنفاس ، ولا يتشابه الكلام ((والحكم في ذلك صعب شديد ، والفصل فيه شأو بعيد)) (١) يقول الخطابي :

ذكرت الرواة أن جريراً مرّ بذي الرّمة وقد عمل قصيدته التي أولها :

نَبَتْ عيناك عن طلل بحزوى عفته الرّيحُ وامتنح القطارا

فقال : ألا أنجّدك بأبيات تزيد فيها ! فقال نعم ، فقال :

يُعَدّ النَّاسِبون بني تميم بيوت المجد أربعة كبارا

يعدّون الرّباب وآل تميم وسعداً ، ثم حنظلة الخيارا

ويذهب بينها المرئيّ لغواً كما ألغيت في الدّية الحوارا

فوضعها ذو الرمة في قصيدته التي مرّ بها الفرزدق فسأله عما أحدث من الشعر فأنشده القصيدة ، فلما بلغ هذه الأبيات قال : ليس هذا من بحرك مضيفها أشدّ لحين منك ، قال : فاستدركها بطبعه ، وفطن لها بلطف ذهنه (٢) .

هذا الداء (السرقة) ، الذي يغض من جماليات المعنى الشعري ، كان إحدى العضلات التي واجهت الشعراء في العصور المتأخرة . فإذا ما اعتقد أنه ابتكر معنى وفرح به ، لا يلبث أن يفضي به البحث إلى وجود مثله عند من سبقه . يقول القاضي الجرجاني : (ومتى أجهّد أحداً نفسه ، وأعمل فكره ، وأتعب خاطره وذهنه في

(١) - إعجاز القرآن . أبوبكر محمد بن الطيب الباقلائي .

تحقيق : السيد أحمد صقر ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨١ م ، ص ١١٩ .

(٢) - بيان إعجاز القرآن للخطابي ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، حققها وعلق عليها : محمد خلف الله ، والدكتور محمد زغلول سلام ، القاهرة : دار المعارف ، ط ٣ ، ١٩٧٦ م ص ٢٥ وللاتساع انظر حلية المحاضرة للحاتمي ، تحقيق الدكتور جعفر الكتّاني ٢ / ٤٩ - ٥١ .

تحصيل معنى يظنه غريباً مبتدعاً ، ونظم بيت يحسبه فرداً مخترعاً ، ثم تصفح عنه الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه ، أو يجد له مثلاً يغفل من حسنه . (١) .

وهذا الوقوع في شرك الآخرين ، يقتل لذة الإبداع عند منتج النص ، ويغض من مكانته عند متلقيه ؛ لأنه يكرر عليه ما قد سمعه (والسمع إذا ورد عليه ما قد ملّه من المعاني المكررة (x)) ، والصفات المشهورة التي قد كثر ورودها عليه مجّه ، وثقل عليه وعيه . فإذا لطف الشاعر لشوب ذلك بما يلبسه عليه فقرب منه بعيداً ، أو بعد منه قريباً ، أو جلل لطيفاً ، أو لطف جليلاً ، أصغى إليه ووعاه ، واستحسنه السامع واجتباها . (٢) .

وقد بلغت هذه المحنة أوجها في العصر العباسي عند الشعراء المحدثين ، فقد كانت أشد عليهم ؛ (لأنهم قد سبقوا إلى كل معنى بديع ، ولفظ فصيح ، وحيلة لطيفة ، وخلاصة ساحرة ، فإن أتوا بما يقصر عن معاني أولئك ، ولا يربى عليها ، لم يُتلق بالقبول ، وكان كالمطرح المملول) (٣) ولأن المحنة عليهم شديدة الوقع كان الإنصاف في الحكم النقدي يقتضي معذرتهم ؛ لأن من تقدّمهم قد استغرق المعاني ، وسبقهم إليها (٤) . ولهذا يرسم ابن طباطبا استراتيجية للشاعر المحدث ، يعتمد من خلالها إلى التعمية والتضليل على المعاني المسروقة التي ألجأ إليها ذهاب القدماء بكل فضيلة ،

(١) - الوساطة ص ٢١٥ .

(x) - لعلها المكرورة .

(٢) - عيار الشعر ص ٢٠٢ .

(٣) - عيار الشعر ص ١٢ .

(٢) - الوساطة ص ٢١٤ .

فإذا ماتناول الشاعر معنى مَنْ كان قبله ، وأبرزه في كسوة حسنة ، كان فضل عليه وإحسان فيه . ومن سلك هذا السبيل فإنه يحتاج إلى (إطفاف الحيلة ، وتدقيق النظر في تناول المعاني واستعارتها وتلييسها حتى تخفى على نقادها والبصراء بها ، وينفرد بشهرتها كأنه غير مسبوق إليها . فيستعمل المعاني المأخوذة في غير الجنس الذي تناولها منه .. ويكون ذلك كالصائغ الذي يذيب الذهب والفضة المصوغين فيعيد صياغتهما بأحسن مما كانا عليه ، وكالصباغ الذي يصبغ الثوب على مارأى من الأصباغ الحسنة) (١) .

وحين نتبع أخبار الشعراء نجدهم يذكرون أنهم (أسرق من الصاغة) (٢) وأن ضوال الشعر أحب إليهم من ضوال الإبل (٣) .

لكننا حين نتصفح أشعارهم في عصور ازدهار الشعر بخاصة ، نجد أن الشاعر يفتخر بأن معانيه منزهة عن السرقة . فطرفة يقول :

ولا أغير على الأشعار أسرقها عنها غنيت وشر الناس من سرقا (٤)
وحسان يقول :

لأسرق الشعراء مانطقوا بل لا يوافق شعرهم شعري (٥)

(١) - عيار الشعر ص ١٢٦ .

(٢) - الموشع ص ٢٥ .

(٣) - المصدر نفسه ص ١٦٨ .

(٤) - ديوان طرفة بن العبد شرح الأعلام الشنتمري ، تحقيق : درية الخطيب ، لطفي الصقال ، دمشق : مطبوعات مجمع اللغة العربية ، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م ، ص ١٨٠ .

(٥) - ديوان حسان بن ثابت الأنصاري حققه وعلق عليه د . وليد عرفات . بيروت ، دار صادر ، بدون تاريخ / ٥٣ .

وأبو تمام يقول :

منزهة عن السرّق المورّى مكرّمة عن المعنى المعاد (١)

وحين نتبع فلسفة القدماء لفكرة السرقة نجدها تنهض على عدد من البواعث التي بعضها ينبع من داخل بنية النص الشعري ، وبعضها الآخر خارجي فرضته المرحلة الشفاهية في الثقافة العربية ، أو أفرزته بعض التوجهات النقدية ، ورسم مساره الصراع الثقافي بين بعض فئات المجتمع وهي كالتالي :

١ - الشفاهية : حيث كان لتأخر تدوين الشعر ، أثر في اضطراب رواية النص . فالراوي يعتمد في محفوظه على ذاكرته التي تعج بكم هائل من المحفوظ . ومعلوم أن استحضر ذلك المحفوظ لا يتم بعملية آلية بسيطة . فالذاكرة قد تضعف ، مما يؤدي إلى التغيير في بنية النص من خلال تسرب ذلك المحفوظ المختزن ، فيظهر التداخل بين النصوص الأمر الذي يسوّغ لغير المتأمل القول بالسرقة .

٢ - الإطار الثقافي : فالمعروف أن جودة الشاعر في التراث النقدي مقترنة بالوعي الثقافي بتراث الأمة ، وفي مقدمته الشعر . ولهذا كان الشاعر الفحل عندهم هو الذي يجمع إلى جودة شعره حفظ شعر غيره . وكان لكل شاعر رواية يروي شعره وهذه الرواية مدعاة للتأثر بالنهج ، والمعجم الشعري ، ومنازع المعنى ، وتشكيل الصور الفنية .

٣ - هيكل القصيدة العربية : فالهيكل العام للقصيدة العربية يتأسس على إيقاع

(١) - الديوان ، بشرح الخطيب التبريزي . تحقيق : محمد عبده عزام ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٤ م / ١ / ٣٨٢ .

صارم يحدده الوزن والقافية . وهذه الصرامة تلجئ الشاعر إلى الوقوع في أسر من قبله ، يقول ابن رشيق : (إنه لم يخف على حاذق بالصنعة أن الصانع إذا صنع شعراً في وزن ما وقافية ، وكان لمن قبله من الشعراء شعر في ذلك الوزن وذلك الروي ، وأراد المتأخر معنى بعينه فأخذ في نظمه ، أن الوزن يحضره ، والقافية تضطره ، وسياق الألفاظ يحدوه حتى يورد نفس كلام الأول ومعناه حتى كأنه سمعه وقصد سرقة ، وإن لم يكن سمعه قط .) (١) .

٤ - تقارب البيئات : فتقارب البيئات سبب في تقارب المعجم الشعري ، وتداخل الأفكار وهذا ما أشار إليه الأمدي في معرض دفاعه عن سرقات البحري من أبي تمام حيث قال : (إذا كان غير منكر لشاعرين أكثرين متناسين ومن أهل بلدين متقاربين أن يتفقا في كثير من المعاني ولا سيما ما تقدم الناس فيه ، وتردد في الأشعار ذكره ، وجرى في الطباع والاعتقاد من الشاعر وغير الشاعر استعماله .) (٢) .

٥ - الأحقاد الشخصية والتعال : كالذي حصل لأبي الطيب المتنبي من الحاتمي وابن وكيع التنيسي . فنظراً لما كان يتمتع به المتنبي من مكانة شعرية مرموقة ، تأججت الأحقاد في نفوس حساده ، لانتقاصه ، وتبع سرقاته ، فألف الحاتمي الرسالة

(١) - قراصة الذهب في نقد أشعار العرب . ابن رشيق . تحقيق : الشاذلي بويحي ، تونس : الشركة التونسية ، ١٩٧٢ م ، ص ١٧١ .

(٢) - الموازنة بين شعر أبي تمام والبحري ، أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدي ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، القاهرة : دار المعارف ، ط ٢ ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م ، ١ / ٥٦ .

الحاقية ، والرسالة الموضحة ، وحلية المحاضرة . وصنف ابن وكيع المصنف للسارق والمسروق منه في إظهار سرقات أبي الطيب المتنبي ، وجميع هذه المصنفات تتسم بالتحامل الشنيع عليه ، وتدّعي الموضوعية وليس فيها منها شيء .

٦ - ثنائية اللفظ والمعنى : إذ انقسم النقاد إلى فريقين ، فريق ينسب الفضيلة إلى اللفظ ، وفريق آخر ينسبها إلى المعنى . فالذين اعتدوا بالشكل اللغوي آثروه في البحث عن القيمة الجمالية في النص جعلوا التشابه الظاهر في الكلمات دليلاً على السرقة . والذين قدموا المضمون جعلوا المزية فيه بدا المعنى عندهم وكأنه فكرة مجردة يمكن فهمها خارج سياقها اللغوي ، الأمر الذي أفضى بهم إلى القول بالسرقة .

٧ - انتزاع النص من سياقه : لقد كان البيت المفرد سمة من سمات الفكر العربي ، في الرواية والاستجادة ، وفي شواهد العربية ، والتاريخ ، والتفسير ، والبلاغة ، والنقد ومن هنا أصبح الحكم النقدي - في كثير من المواقف - ينصب على هذا البيت المفرد ، حيث ينظر إليه بمعزل عن سياقه اللغوي والفني ، الذي يشكل جزءاً من معناه ، وهو حكم يدرك شيئاً ، ويغيب عن إدراكه شيء كثير ، إذ لو نظر إلى البيت في سياقه الذي نبت فيه ، لربما تغير الحكم ، واختلفت النظرة ، و (البيت إذا قطع عن القطعة كان كالكعب تُفرد عن الأتراب ، فيظهر فيها ذل الاغتراب ، والجوهرة الثمينة مع أخواتها في العقد أبهى في العين ، وأملأ بالزين ، منها لو أفردت عن النظائر ، وبدت فذة للناظر .) (١) .

(١) - كتاب أسرار البلاغة . عبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ، القاهرة : مطبعة المدني ، ط ١ ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م ، ص ٢٠٦ .

لقد كانت هذه البواعث ، وغيرها (١) ، مسوّغاً لإطلاق كثير من الأحكام النقدية الانطباعية والمجحفة في بعض الأحيان ، كهذا الحكم الذي أثر عن الأصمعي في قوله : إن تسعة أعشار شعر الفرزدق سرقة ، وأن جريراً لم يسرق إلا نصف بيت (٢) وتلك الأحكام التي عرضها الآمدي في الموازنة ورد عليها ، وما يرد في بعض كتب الحاتمي وكتاب ابن وكيع مما ليس للإنصاف والموضوعية في كثير منه نصيب .

إن هناك رغبة واضحة عند بعض النقاد في وصف معاني المحدثين بالسرقة ؛ لأدنى تشابه ، وإلا فكثير من تلك المعاني يمكن النظر إليه من قبيل توارد الخواطر ، ووقع الحافر على الحافر كما قال أحمد بن أبي طاهر :

والشعر ظهر طريق أنت راكبه فمنه منشعب أو غير منشعب
وربما ضمّ بين الركب منهجه وألصق الطنبّ العالي إلى الطنب (٣)

ومع هذا لانعدم أن نجد ناقداً كالقاضي الجرجاني ، يربأ بنفسه عن استخدام مصطلح (سرقة) ، ويؤثر مصطلح (السبق) - حتى مع الشعراء الذين كثر اتكاؤهم على غيرهم ، فتكاثر معانيهم في أشعارهم ، - فيؤرخ به لصيرورة المعنى الشعري

(١) - للاتساع انظر على سبيل المثال :-

- ١ - تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، الدكتور : إحسان عباس .
 - ٢ - مشكلة السرقات في النقد العربي . الدكتور محمد مصطفى هدارة .
 - ٣ - المعنى الشعري في التراث النقدي . الدكتور حسن طبل .
 - ٤ - النقد الأدبي في القرن الرابع الهجري ، الدكتور قاسم مؤمني .. وغيرهم .
- (٢) - الموشح ، طبعة دار الفكر القاهرية ، ص ١٤٦ .
- (٣) - الوساطة ص ٢١٤ .

وحرركته من جهة ، ويتجافى التعميم في الأحكام من جهة أخرى يقول :

(ولهذا السبب أحضر على نفسي ، ولا أرى لغيري بت الحكم على شاعر بالسرقه ..
إلا أنني إذا وجدت في شعره معاني كثيرة أجدها لغيره حكمت بأن فيها مأخوذاً لاأثبته
بعينه ، ومسروقاً لا يتميز لي عن غيره ، وإنما أقول : قال فلان كذا ، وقد سبقه إليه
فلان فقال كذا ، فأغتنم به فضيلة الصدق ، وأسلم من اقتحام التهور) (١) .

وهنا تتجلى روح القاضي الفقيه المتحرج في إسناد التهمة إلى المتهم بلا دليل .
وهذه الروح المثبتة هي روح الناقد النزيه الذي لا يتعجل في إصدار احكامه . وهي
روح أخلاقية تستبطن مسالك المعرفة في تراث علماء المسلمين لم تنزل بحاجة إلى مزيد
من الكشف عنها ، والوقوف على آثارها في تلقي المعرفة ، ومحاورتها .

وعلى هذا يعتقد الإجماع على القول بالتأثر ، مع اختلاف في مستوياته ، فتارة
يقال سرقة ، وتارة أخرى يقال : استمداد ، وأخذ واستعانة واحتذاء ، وثالثة يقال :
سلخ أو مسخ (٢) ، ويقال سرقة قبيحة ، أو سرقة حسنة يعذر فيها الشاعر
(ولا يعذر الشاعر في سرقة حتى يزيد في إضاعة المعنى ، أو يأتي بأجزل من الكلام
الأول ، أو يسمح له بذلك معنى يفضح به ماتقدمه ، ولا يفتضح به ، وينظر إلى ماقصده
نظر مستغن عنه لافقير إليه) (٣) .

ومن الدارسين من قد وضع كلام القدماء في السرقات في إطار واحد ، ومستوى مطرد
، وهذا حملٌ للكلام على غير محمله ، وفهم له على غير جهته ، وطعن على القوم في

(١) - الوساطة ص ٢١٥ .

(٢) - أسرار البلاغة ص ٣٣٨ .

(٣) - الموشح ص ٣١٢ .

إدراكهم لخصائص النص الشعري فعندما (كانت تتوارد في أشعار المحدثين أشياء مما كان يؤخذ مأخذ السرقات فقد كان سياقها الشعري الذي تأتي فيه يكشف عما كان ينهض به الشعراء المحدثون من تكثيف لرموز اللغة الشعرية القديمة ، بما يعمدون إليها من إيغال في البعد الرمزي الذي تؤخذ فيه الكلمات ، وإطلاقها إلى ما يتخونه فيها من آفاق لم تمنح لها من قبل ، ولم يستطع النقد القديم والبلاغة أن يكشفاه) (١) .

وتكثيف الرموز الشعرية مبني على الاعتداد بها ، والنظر إليها على أنها جوهر في المعنى وليس زوائد فيه تلحق بمعنى الشاعر المتقدم فتحسنه ، فتصبح نمواً للغة الشعر ينبت في أعماق النص (نمواً تصبح فيه امتداداً للنص ، وليست استعانة بوجود خارج عنه ، ويصبح انحرافها عن النموذج السابق لها توجهها أصيلاً فيها وليس مجرد محاولة للخروج عن ذلك النموذج فحسب) (٢) .

وهذا التصور يختزل الفكر النقدي في رؤية واحدة ، وموقف ثابت ، لا يتغير من النظر إلى القضية ، فالنص السابق هو الأصل ، والنص اللاحق فرع عنه ، وبمقتضى هذا يصبح المتأخر عالة على المتقدم ، وسارقاً لمعانيه ، ومفتقراً إلى رؤيته .

وهذا تصور غير دقيق ، وفهم ظاهري لدلالات الكلام ، وهو ما حذر عبدالقاهر — الذي سنقف معه في هذه القراءة — من الوقوع تحت سلطته ؛ لأنه مظنة لبس ، ومطية

(١) - تكثيف اللغة الشعرية قراءة في مبحث السرقات . سعيد مصلح السريحي ، دراسة ضمن قراءة جديدة لتراثنا النقدي ، جدة : النادي الأدبي الثقافي ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م ، ٢ / ٧٥٤ .

(٢) - المرجع السابق ٢ / ٧٥٤ .

زلل فقال : (واعلم أنه إنما أتى القوم من قلة نظرهم في الكتب التي وضعها العلماء في اختلاف العبارتين على المعنى الواحد . وفي كلامهم من أخذ الشاعر من الشاعر ، وفي أن يقول الشاعر ان على الجملة في معنى واحد ، وفي الأشعار التي دونوها في هذا المعنى . ولو أنهم كانوا أخذوا أنفسهم بالنظر في تلك الكتب ، وتدبروا مافيهها حق التدبر ، لكان يكون ذلك قد أيقظهم من غفلتهم ، وكشف الغطاء عن أعينهم) (١) .

وقد كان هذا الفهم موجوداً في زمن عبدالقاهر ، فأراد أن يكشف أسسه التي قام عليها ، وينقضها ، لما فيها من خلل في التصور ، وخطر على الفكر ، وتشويه له ، ويقدم التفسير الصحيح لكلام القوم .

عرّف عبدالقادر الاحتذاء بقوله : (اعلم أن الاحتذاء عند الشعراء وأهل العلم بالشعر وتقديره وتميزه أن يتديء الشاعر في معنى له وغرض أسلوباً - والأسلوب الضرب في النظم والطريقة فيه - فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب فيجيء به في شعره فيشبه بمن يقطع من أديمه نعلأ على مثال نعل قد قطعها صاحبها ، فيقال قد احتذى على مثاله وذلك مثل إن الفرزدق قال :

أترجو رُبَيْعَ أن تجيء صغارها بخير وقد أعيا ربيعاً كبارها
واحتذاه البعيث فقال :

أترجو كليب أن يجيء حديثها بخير وقد أعيا كليلاً قديمها

(١) - كتاب دلائل الإعجاز . عبدالقاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ، القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٨٤ م ، ص ٤٨٩ .

وقالوا إن الفرزدق لما سمع هذا البيت قال :

إذا ماقلت قافية شروداً تنحلها ابن حمراء العجان (١)

فالاحتذاء هو السرقة والأخذ (وجملة الأمر أنهم لا يجعلون الشاعر محتذياً إلا بما يجعلونه به آخذاً ومسترقاً) (٢) .

لكن عبدالقادر يسميه احتذاء ، وفي التسمية (فطنة) يخرج بها من سوء النية عند الناقد ، من جهة ، والاهتمام بالإطار للمبدع من جهة أخرى .

لقد استوقفت عبدالقاهر عبارة مشهورة في مقدمة كتاب الألفاظ الكتابية لعبد الرحمن الهمداني ، وهي قول العلماء : (إن من أخذ معنى عارياً فكساه لفظاً من عنده كان أحق به) (٣) وهي عبارة حين تفهم على ظاهرها ، يُظن أن المعنى الشعري لا يتغير ، وأن فضل المتأخر على المتقدم إنما هو زركشة معناه وتزيينه ، لكن العلماء أرادوا خلاف ذلك ، وهو أن الأحقية بالمعنى لا يمكن أن تكون من خلال هذا الطلاء الخارجي ، وإنما بكشف إمكان جديد من إمكانات المعنى (فمن أين يجب إذا وضع لفظاً على معنى ، أن يصير أحق به من صاحبه الذي أخذه منه ، إن كان هو لا يصنع بالمعنى شيئاً ، ولا يحدث فيه صفة ، ولا يكسبه فضيلة ؟) (٤) .

(١) - كتاب دلائل الإعجاز . عبدالقاهر الجرجاني .

قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ، القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٨٤ م ، ص

٤٦٨/٤٦٩ .

(٢) - نفسه ٤٧١ .

(٣) - نفسه ص ٤٨٣ .

(٤) - نفسه ص ٤٨٣ .

وقبل إيضاح أسس ذلك (الفهم الأعوج) ومنطلقاته كما كشف عنها عبدالقاهر يجب أن نقف عند تقسيم عبدالقاهر لمعاني الشعر ، ووقوع السرقة فيها ، متى ؟ وكيف ؟ ، ومتى يكشف اللاحق عن زاوية جديدة في معنى الشاعر السابق ؟ .
قسم عبدالقاهر المعنى الشعري إلى قسمين هما : -

١ - معنى عقلي .

٢ - معنى تخيلي .

أما المعنى العقلي : فهو المعنى الصريح الذي (يشهد له العقل بالصحة ، ويعطيه من نفسه أكرم النسبة ، وتتفق العقلاء على الأخذ به ، والحكم بموجبه ، في كل جيل وأمة ، ويوجد له أصل في كل لسان ولغة) (١) ومنه قول المتنبي :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدّم

فهو (معنى معقول ، لم يزل العقلاء يقضون بصحته ، ويرى العارفون بالسياسة الأخذ بسنته ، وبه جادت أوامر الله سبحانه ، وعليه جرت الأحكام الشرعية والسنن النبوية) (٢) ، ومثل هذا المعنى (ليس للشعر في جوهره وذاته نصيب ، وإنما له ما يلبسه من اللفظ ، ويكسوه من العبارة) (٣) .

وأما المعنى التخيلي : (فهو الذي لا يمكن أن يقال إنه صدق ، وأن ما أثبتته ثابت ، وما نفاه منفي ، وهو مفتن المذاهب ، كثير المسالك) (٤) ومنه قول أبي تمام :

(١) - أسرار البلاغة ص ٢٦٤ .

(٢) - أسرار البلاغة ص ٢٦٦ .

(٣) - المصدر نفسه ٢٦٥ .

(٤) - نفسه ص ٢٦٧ .

إن رب الزمان يحسن أن يهـ — سدي الرزايا إلى ذوي الأحساب
فلهذا يجف بعد اخضرار — قبل روض الوهاد روض الروابي

وحين يقف عبدالقاهر أمام فكرة الاتفاق والتداخل في المعاني الشعرية ، يبحث في الأساس الذي تداخل المعنيان فيه ، ويكون ذلك عنده ضمن مستويين اثنين هما :

١ - الاتفاق في عموم الغرض . ٢ - الاتفاق في وجه الدلالة على الغرض .

أما في عموم الغرض كالاتفاق في مديح الرجال ، بالشجاعة والسخاء ، وأما في وجه الدلالة على الغرض فعلى طرق منها :

أ - المبالغة في التشبيه كالتشبيه بالأسد في الشجاعة ، وبالبحر في العطاء ، وبالشمس في الإشراق .

ب - ذكر هيئة تدل على الصفة ، لا تتحقق إلا فيمن وجدت فيه تلك الصفة ، كهيئة الابتسام في حال الحرب ، فهي هيئة لا تتحقق إلا لمن كانت لديه صفة الشجاعة (١) .

والاتفاق في عموم الغرض لا يُعدّ داخلاً عنده في حيز السرقة ؛ لأن الغرض الشعري ملك مشاع بين الشعراء ، ولهذا لا ترى من به حسّ يدعي ذلك ويأبى الحكم بأنه لا يدخل في باب الأخذ ، وإنما يقع الغلط من بعض من لا يحسن التحصيل ، ولا ينعم التأمل فيما يؤدي إلى ذلك حتى يدّعى عليه في الحاجة أنه بما قاله قد دخل في حكم من يجعل أحد الشاعرين عيلاً على الآخر في تصوّر معنى الشجاعة ، وإنما هو مما يمدح به ، وأن الجهل مما يُذم به . فأما أن يقوله صريحاً ، ويرتكبه

(١) - أسرار البلاغة ص ٣٣٨ .

قصداً ، فلا (١) .

أما الاتفاق في وجه الدلالة على الغرض فإن على الناظر أن يتأمله (فإن كان مما اشترك الناس في معرفته ، وكان مستقراً في العقول والعادات فإن حكم ذلك وإن كان خصوصاً في المعنى حكم العموم الذي تقدم ذكره) (٢) يعني أن السرقة لا تدخله ، ومن ذلك التشبيه بالأسد في الشجاعة ، والبحر في السخاء ، (لأن هذا مما لا يختص بمعرفته قوم دون قوم ، ولا يحتاج في العلم إلى رؤية واستنباط وتدبر وتأمل ، وإنما هو في حكم الغرائز المركوزة في النفوس ، والقضايا التي وضع العلم بها في القلوب) (٣) .

والتفاضل إنما يقع بين الناس فيه من طريق التأني إليه . فهناك من يعرضه صريحاً ، مجرداً ، وهناك من يبرزه في نسيج لغوي محكم البناء ، وصورة فنية ، ترتقي به من مدار المعاني المشتركة إلى مدار المعاني الخاصة (فأما إذا ركب عليه معنى ، ووصل به لطيفة ، ودخل إليه من باب الكناية والتعريض ، والرمز والتلويح ، فقد صار بما غير من طريقتة ، واستؤنف من صورته ، واستجد له من المعرض ، وكُسي من دل التعرض داخلاً في قبيل الخاص الذي يُتملك بالفكرة والتعمّل ، ويوصل إليه بالتدبر والتأول) (٤) .

وبهذا يصبح التعرض له احتذاءً وسرقة .

(١) - أسرار البلاغة ص ٣٣٩ .

(٢) - المصدر السابق ص ٣٣٩ .

(٣) - نفسه ص ٣٣٩ .

(٤) - نفسه ص ٣٤٠ .

ويورد عبدالقاهر عدداً من النماذج الشعرية التي منها قول البحري :
فأفضت من قُرب إلى ذي مهابة أقابل بدر الأفق حين أقابله
إلى مسرف في الجود ، لو أن حاتمًا لديه ، لأمسي حاتم وهو عاذله
ويعقب عليها بقوله : (فهذا كله أصله ومغزاه ، وحقيقة معناه تشبيهه ، ولكن كني لك
عنه ، وخودعت فيه ، وأُتيت به من طريق الخلابة في مسلك السحر ، ومذهب
التخيل لا يدين به إلا للمرؤي المجتهد .) (١) .

أما إذا كان وجه الدلالة بعيد المنال مما لا يصل إليه المبدع إلا بعد تدبّر ومعاينة ومباحثة
وكان (من دونه حجاب يحتاج إلى خرقه بالنظر ، وعليه كمّ يفتقر إلى شقه بالتفكر ،
وكان درأً في قعر بحر ، لا بد له من تكلف الغوص عليه ، وممتنعاً في شاهق لا يناله إلا
بتجشم الصعود إليه ، وكامناً كالنار في الزند لا يظهر حتى تقتدحه ، ومتشابكاً لغيره
كعروق الذهب التي لا تبدي صفحتها بالهويّنا ، بل تنال بالحفر عنها ، وتعريق الجبين في
طلب التمكن منها .

نعم إذا كان هذا شأنه ، وههنا مكانه ، وبهذا الشرط يكون إمكانه ، فهو الذي
يجوز أن يدّعي فيه الاختصاص والسبق ، والتقدم والأولية ، وأن يجعل فيه سلف
وخلف ، ومفيد ومستفيد ، وأن يقضي بين القائلين فيه بالتفاضل والتباين ، وأن
أحدهما فيه أكمل من الآخر ، وأن الثاني زاد على الأول أو نقص عنه ، وترقى إلى
غاية أبعد من غايته ، أو انخط إلى منزلة هي دون منزلته) (٢) .

وهذا من أدق أوصاف مشقة الإبداع في تراثنا النقدي . فالمبدع باحث عن الحقيقة

(١) - أسرار البلاغة ص ٣٤٢ .

(٢) - أسرار البلاغة ص ٣٤٠ .

يخرق من أجلها الحجب في جميع الآفاق ، بحثاً عن الرؤى البكر ، والكلمات الحرة .
وهذا الكدح الموجب للإبداع والتفرد ، ولهذا كان المتعلق به عقلاً يسلك طريقاً لاحقاً
واضح المعالم ، شقه له من قبله بتقحمه وقوة طبعه .
والمشقة في التعلق بهذه المعاني تكمن في العجز عن الإضافة إليها ، أو الوقوع تحت
سلطتها .

وحين وقف عبدالقاهر أمام كلام العلماء في هذه القضية ، وجد كثيراً من
التأخرين يحملون الكلام على غير جهته التي يجب أن يحمل عليها ، بسبب من قصر في
النظر ، وضيق في الرؤية ، استحال فيه النص إلى قسمين لاثالث لهما هما : (اللفظ
والمعنى) ، وفسرت دلالة اللفظ في كلام القدماء تفسيراً فاسداً ، وبنى على هذا
التفسير منهج ، نتجت عنه نتائج فاسدة ، كان من أهمها البحث في تداخل النصوص
أو (السرقات) بمنطق خاص في بعض الأحيان - لا يدرك خصوصية النظر ، وصور
المعنى .

إن المراد (باللفظ) في كلام القدماء - الذي نبخته هنا - هو النسيج اللغوي الذي
يُعرض في المعنى الشعري ، وفضيلته فضيلة فنية معنوية يتشكل المعنى من خلاله تشكلاً
جديداً ، وليس المراد به (الكلمة المفردة) وحصر وظيفته في وظيفة إيقاعية هي (نطق
اللسان وجرس الحروف) صرفت النظر عن الجوهر فيه إلى القشور .

لقد انتزع أصحاب هذا التفسير اللفظ من سياقه ، فلم ينظروا إلى ما وصفه به
القدماء من (التمكن) أو (النبوة) فكان ذلك مدعاة لسوء الفهم ، ولو أنهم نظروا
إليه مقروناً بأوصافه لعلموا أن القدماء (لم يوجبوا اللفظ ما أوجبوه من الفضيلة ، وهم
يعنون الصورة التي تحدث في المعنى ، والخاصة التي حدثت فيه ، ويعنون الذي عناه

الجاحظ حيث قال : ... وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير . (١) .
إن جودة الصياغة التي يُفسّر بها اللفظ هي التي جعلت المتأخر يكون أحياناً أحق بالمعنى المتقدم ، وفي ضوءها يمكن فهم فكرة أخذ المعنى ، وتفسيرها ، لكننا حين نفسر اللفظ بأنه (الكلمة المفردة) و (ونطق اللسان) نكون قد أوجدنا مستحيلاً على العقل تحققه ، وهو وجود معنى عارٍ من لفظ يدل عليه ، ولو افترضنا وجود ذلك جدلاً ، فكيف يمكن لنا أن نفسر الأحقية بالمعنى مع أن الشاعر المتأخر لم يصنع فيه شيئاً (٢) .

فبقاء العبارة وحسن السبك إذاً هي اللغة الخاصة للمبدع ، والنفس الذي يطبع به الكلام ، ويجلو به صور الأشياء والكائنات ، فيجعل منها صوراً خاصة به رؤية ونسيجاً ((صورة وصفة وخصوصية تحدث في المعنى ، شيئاً طريق معرفته على الجملة العقل دون السمع)) (٣)

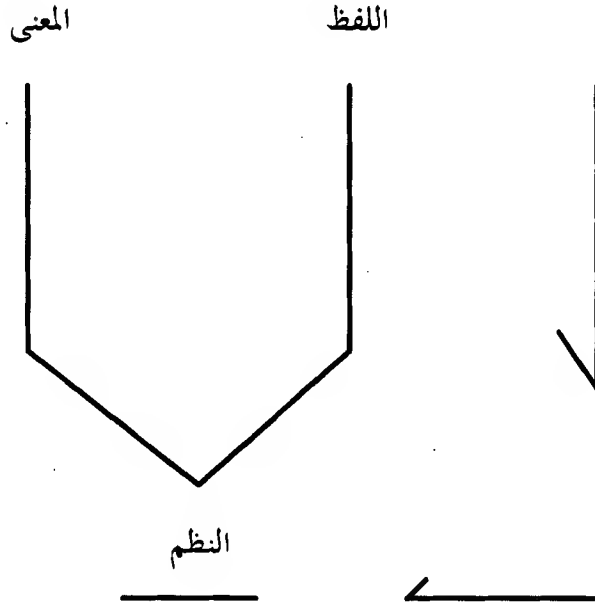
لقد كان البحث عن القيمة في النص الأدبي في التراث البلاغي والنقدي يتجه اتجاهاً (رأسياً) عبر ثنائية ((اللفظ والمعنى)) فاستحال على يدي عبدالقاهر إلى بحث (أفقي) تتجاوز فيه الثنائية لتشكّل نسقاً جديداً هو (النظم) (٤) .

(١) - دلائل الإعجاز ص ٤٨٢ .

(٢) - المصدر نفسه ص ٤٨٣ .

(٣) - المصدر نفسه ص ٤٨٦ .

(٤) - لم يكن عبدالقاهر أول من تنبه لفكرة النظم ، فقد سبقه إلى ذلك الجاحظ الذي ألف كتاباً عنوانه نظم القرآن لكنه لم يصل إلينا ، ثم جاء بعده الخطابي ، والباقلاني ، والقاضي عبدالجبار . وإنما عبدالقاهر هو الذي جعل من الفكرة نظرية متكاملة ولهذا تنسب له .



وبمقتضى هذا النسق الفكري استطاع عبدالقاهر أن يقدم لنا حلولاً لبعض المشكلات الفكرية في النقد العربي ، ومنها مشكلة السرقات .

لقد ظن بعض أنصار اللفظ - وهم بعض المعتزلة في كتاب دلائل الإعجاز - أن التفاضل بين العبارات (إذا كان المعبر عنه واحداً ، والعبارة اثنتين ، ثم كانت إحدى العبارات أفصح من الأخرى وأحسن ، فإنه ينبغي إن يكون السبب في كونها أفصح وأحسن اللفظ نفسه ، وجدتهم قد قالوا ذلك من حيث قاسوا الكلامين على الكلمتين . فلما رأوا أنه إذا قيل في الكلمتين إن معناهما واحد ، لم يكن بينهما تفاوت ولم يكن للمعنى في إحدهما حال لا يكون له في الأخرى ، ظنوا أن سبيل الكلامين هذا

السييل . (١) .

إن مشكلة هؤلاء عند عبدالقاهر تكمن في التهاون في معرفة حياة الألفاظ ودورانها . فانشغالهم بظواهر القول ، وجرس الحروف ، وإيقاع الألفاظ أنساهم الدلالات الخفية للألفاظ ، فاستوى عندهم اللفظان في الدلالة ، وهذا فهم أعوج . هذا التهاون في إدراك الفروق بين دلالات الألفاظ المفردة جرّهم إلى تهاون أشنع منه هو النظر إلى المعنى على أنه فكرة مجردة ، لاقية للألفاظ في نسجها ، يمكن فهمها خارج السياق اللغوي الذي يعرضها ، وهذا غاية الضلال ؛ (لأنه لا يتصور أن تكون صورة المعنى في أحد الكلامين أو البيتين ، مثل صورته في الآخر البتة ، اللهم إلا أن يعتمد عامد إلى بيت فيضع مكان كل لفظ منه لفظة في معناها ، ولا يعرض لنظمه وتأليفه كمثال أن يقول في بيت الخطيئة :

دع المكارم لا ترحل لبغيها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
ذر المفاخر لا تذهب لمطلبها واجلس فإنك أنت الآكل اللابس

وما كان هذا سبيله كان بمعزل من أن يكون به اعتداد وأن يدخل في قبيل ما يفاضل فيه بين عبارتين ، بل لا يصح أن يجعل ذلك عبارة ثانية ، ولا يجعل الذي يتعاطاه بمحلّ من يوصف بأنه أخذ معنى ، ذلك لأنه لا يكون بذلك صانعاً شيئاً يستحق أن يدعى من أجله واضح كلام ، ومستأنف عبارة ، وقائل شعر . ذلك لأن بيت الخطيئة لم يكن كلاماً وشعراً من أجل معاني الألفاظ المفردة التي تراها فيه مجردة مُعرّاة من معاني النظم والتأليف ، بل منها متوخّى فيها ماترى من كون المكارم

مفعولاً لدع ، وكون قوله لاترحل لبغيتها جملة أكدت الجملة قبلها .. فالذي يجيء فلا
يغير شيئاً من هذا الذي به كان كلاماً وشعراً ، لا يكون قد أتى بكلام ثانٍ وعبارة ثانية
بل لا يكون قد قال من عند نفسه شيئاً البتة . (١) .

لقد كانت الفكرة في البيت الثاني تقليداً باهتاً للفكرة الأولى ولهذا كانوا
(يسمون هذا الصنيع سلخاً) (٢) يسلخ فيه المبدع فكر من كان قبله ، وهنا تتلاشى
أصالة المبدع وذاتيته ، حيث يفنى في ذات أخرى ، فلا يعود له وجود يذكر . ولهذا
عندما جاء من قال : (إني قلت بيتاً هو أشعر من بيت حسان ، قال حسان :

يُغشون حتى ماتهرّ كلابهم لا يألون عن السواد المقبل

وقلت :

يُغشون حتى ماتهرّ كلابهم أبداً ، ولا يسلون من ذا المقبل ؟

فقليل : هو بيت حسان ، لكنك قد أفسدته (٣) .

إن بناء اللغة ، بناءً للأفكار ، ولهذا كان اختلاف البناء اللغوي سبباً لاختلاف
البناء الفكري . فترتيب الكلمات في سياقها اللغوي صورة لترتيب المعنى في الذهن
فأنت (إذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك ، لم تحتج إلى أن تستأنف فكراً في
ترتيب الألفاظ ، بل تجدها ترتب لك بحكم أنها خدوم للمعاني ، وتابعة لها ،

(١) - دلائل الإعجاز ص ٤٨٧ ، ٤٨٨ .

(٢) - المصدر نفسه ص ٤٧١ .

(٣) - المصدر نفسه ص ٤٨٨ .

ولاحقة بها ، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس ، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق (١) .

ويفضي بعبدالقاهر البحث إلى الوقوف أمام المعنى الشعري لينظر إلى منازع الشعراء في تناوله ، فيجعلها ضمن مستويين اثنين : -

١ - أن يأتي أحد الشاعرين بالمعنى ظاهراً مكشوفاً ، و (غفلاً ساذجاً) ، ويخرجه الآخر مخرجاً فنياً (في صورة تروق وتعجب) ، ولا يحدد لنا عبدالقاهر في هذا المستوى من المقصر ومن المجيد ، اعتماداً على الحس النقدي للمتلقي ، ومن ذلك قول البحرزي :

ولو ملكتُ زماعاً ظل يجذبني قوداً ، لكان ندى كفيك من عقلي

مع قول المتنبي :

وقيدت نفسي في ذراك محبة ومن وجد الإحسان قيلاً تقيداً (٢)

٢ - أن يأتي كل شاعر بتصوير خاص ، وصنعة جديدة للمعنى ، وهذا من قبيل النادر القليل كقول ليبيد :

واكذب النفس إذا حدثتها إن صدق النفس يُزري بالأول

مع قول نافع بن لقيط :

وإذا صدقت النفس لم تترك لها أملاً ، ويأمل ماشتهى المكذوب (٢)

وتناول المعنى الشعري هنا يجب أن يفهم في سياق المشروع الفكري عند

(١) - دلائل الإعجاز ص ٥٤ .

(١) - دلائل الإعجاز ص ٤٩٠ .

(٣) - المصدر نفسه ص ٥٠٠ .

عبدالقاهر ، الذي بمقتضاه يصبح احتذاء الشاعر المتأخر للمتقدم ، كشفاً جديداً لطاقت خبيئة من طاقات المعنى . ونظراً إليه من جهة خاصة توجب الفضل في فتح أفق جديد من آفاق الشعر التي يمكن من خلالها التاريخ لمعاني الشعر وصيرورتها على الألسنة ، وتكونها في أعماق النفوس .

حكى المزرباني أن عمراً الوراق قال : (رأيت أبا نواس ينشد قصيدته التي أولها :
أيها المنتاب من غُفره

فحسدته ، فلما بلغ إلى قوله :

تتأتى الطير غدوته ثقة بالشبع من جزره

قلت له : ماتركت للنابعة شيئاً حيث يقول : إذا ماغدا بالجيـش ، البيتـين ، فقال اسكت ، فلئن كان سبق فمأسأت الاتباع) (٢) .

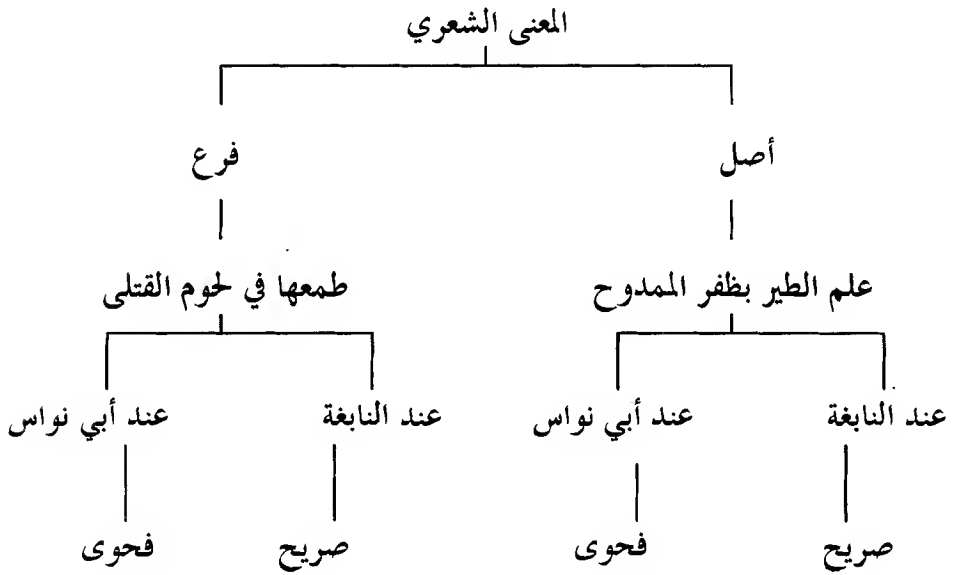
وتستوقف عبدالقاهر كلمة أبي نواس (لئن كان أسبق فمأسأت الاتباع) ليكشف لنا أن معنى هذه الكلمة أن أبا نواس قد ترامي بالمعنى إلى أفق آخر ، وكشف طاقة لم تكشف من طاقاته فيقول :

(إن الأمر ظاهر لمن نظر ، في أنه قد نقل المعنى عن صورته التي هو عليها في شعر النابغة إلى صورة أخرى وذلك أن ههنا معنيين :

أحدهما : أصل وهو علم الطير بأن الممدوح إذا غزا عدواً كان الظفر له وكان هو الغالب .

والآخر : فرع وهو : طمع الطير في أن تتسع عليها المطاعم من لحوم القتلى .

وقد عمد النابغة إلى الأصل .. فذكره صريحاً ، وكشف عن وجهه واعتمد في الفرع .. على دلالة الفحوى ، وعكس أبو نواس القصة ، فذكر الفرح صريحاً .. وعوّل في الأصل .. على الفحوى ، ودلالة الفحوى ، على علمها أن الظفر يكون للممدوح هي في أن قال : (من جزره) وهي لاتشق بأن شبعها يكون من جزر الممدوح حتى تعلم أن الظفر يكون له . أف يكون شيء أظهر من هذا في النقل عن صورة إلى صورة) (١) .



(١) - المصدر نفسه ص ٥٠٢ - ٥٠٣ .

إن النقل عن (الصورة) الأولى يقتضي التفرد بخصوصية في المعنى يكشف عنها الشاعر المتأخر . لكن هذا الاختلاف لا ينفي المشاكلة في (أصلية المعنى) . فإذا كان بين المعنيين قدر كبير من التفاضل ، فإن بينهما قدراً يسيراً من التكامل ، لكن هذا لا يكشف التفرد عند بعض الباحثين . فالقضية أكبر من (أن تكون مجرد نقل صورة يفتش فيه عن الأصل والفرع ، ويتراوح فيه بين دلالة الفحوى ، ودلالة الذكر الصريح ، مما يلتمس به الناقد للشاعر العذر أو الحق في أن يتناول معنى سبقه إليه غيره من الشعراء .) (١) .

وهذا الفهم لا يقف عند حدود صرف كلام عبد القاهر إلى غيره وجهته ، وإنما يتخطاه إلى إغفال حركة المعنى وصيrote في الفكر الشعري ؛ لأنه لا بد من معرفة السابق واللاحق لتبين حركة المعنى وتجديده . ومقولة (الأصل والفرع) عند عبد القاهر ليست إلا تفتيقاً لبنية المعنى يكشف من خلالها طريقة النظر إلى المعنى ، ولا يمكن أن يفهم منها تبعية المتأخر ، ووقوعه تحت سلطة المتقدم ، وإلا انتفت أحقيته بالمعنى .

وموازنة عبد القاهر بين البيتين ، معنية بالاختلاف كما هي معنية بالائتلاف ؛ ولهذا لا يصح قول من قال : إن السرقات في كتب النقد والبلاغة تُعنى بالموازنة ، ونسبة الفضل للجزء من البيت لكنها (لاتعتد بالاختلاف باعتباره جزءاً أصيلاً ليس في ذاته فحسب ، وإنما كذلك لمنحه هذا المعنى المشترك بعداً جديداً لا يكتسبه إلا في السياق

(١) - قراءة جديدة لتراثنا النقدي ٢ / ٧٥٥ .

الجديد الذي وصفه فيه الشاعر (١) .

إن صورة المعنى التي أدار عليها عبدالقاهر بحثه في احتذاء المعنى الشعري قوامها الاعتداد بالاختلاف ، والنظر إلى المعنى في سياقه اللغوي الذي يمنحه دلالة جديدة ، وطاقة خلاقة تفجر ما استكن من خصوبته . ولهذا نجد بعد أن يعرض علينا عدداً وافراً من شواهد الشعر التي احتذى فيها الشعراء بعضهم يعقب عليها بقوله :

(فانظر الآن نظر من نفى عنه الغفلة عن نفسه ، فإنك ترى عياناً أن للمعنى في كل واحد من البيتين من جميع ذلك ، صورة وصفة غير صورته وصفته في البيت الآخر . وأن العلماء لم يريدوا حيث قالوا : إن المعنى في هذا هو المعنى في ذاك .. إن الذي يعقل في هذا لا يخالف الذي يعقل من ذاك ، وأن المعنى عائد عليك في البيت الثاني على هيئته وصفته التي كان عليها في البيت الأول ، وأن لافرق ولا فصل ولا تباين بوجه من الوجوه وأن حكم البيتين مثلاً حكم الاسمين قد وضعاً في اللغة لشيء واحد ، كالليث والأسد ، ولكن قالوا ذلك على حسب ما يقوله العقلاء في الشئين يجمعهما جنس واحد ثم يفرقان بخواص ومزايا وصفات ، كالحاتم والحاتم ، والشنف والشنف ، والسوار والسوار ، وسائر أصناف الحلي التي يجمعها جنس واحد ، ثم يكون بينهما الاختلاف الشديد في الصنعة والعمل .) (٢) .

هذا هو مسلك (العلماء) في فهم ما يقوله (العقلاء) وقد كان بإمكان عبدالقاهر أن يستخف بعقول سلفه ، ويهدم ما أقاموه من كيان فكري ، لكن حرصه

(١) - المرجع نفسه ٢ / ٧٦٤ .

(٢) - دلائل الإعجاز ص ٥٠٧ .

على تلاحم عقول الأمة ، وإدراكه لخطورة هذا المسلك جعله يتكذب هذا المسلك السهل ، فهو لا يجده في طبعه ، فحمل كلام القوم الذي كان من طبعه الوحي والإشارة محملاً حسناً ، وكشف خبيثه ، لعلمه بمكانة آبائه وأجداده في إدارة شئون الكلام ، ومداورة الأفكار التي لا تعدم أن تجد تحتها (خبيثة إذا أثرتها عرفت فضل القوم بها ، وعلمت أنهم أرق طبعاً من أن يلفظوا بكلام لامعنى تحتها) (١) .

يقول الدكتور محمد مصطفى هدار : (لاشك أن عبدالقاهر قد وضع الإطار الصحيح والأبعاد السليمة لقضية السرقات ، ونفى عنها كثيراً من الأحكام المضطربة ، وجعلها نظرية نقدية يدرك عن طريقها الجمال الفني بحيث لا تصير تتبعاً قائماً على التشابه ، بل فكر يستفيد بفكر ، وتعبيراً تبتدعه العبقريّة الخاصة لكل شاعر) (٢) .

وبعد هذا يتضح أن قيمة الشاعر تكمن في وعيه بترائه ، كما كمنت في فطنته الخاصة بالنظر إلى الأشياء ، وبهذا يكون رافداً حقيقياً في نهر الشعر ، يؤثر فيه حين يفتح فيها آفاقاً جديدة ، ويصبح جزءاً من حركته وتدفقه ، وسلسلة من سلاسل نبعه الفياض ، ويتأثر به فلا يكون دخيلاً عليه أو نغمّاً ناشزاً فيه ، يستوعبه لايكرره ، وإنما ليتخطاه . والتخطي وتجاوز ماهو كائن لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال وعي ثاقب بخصوصيته ، ومسالكه في النظر إلى الأشياء ، لأنها مسالك تأليفية وتخيلية تشكل وعي الأمة وذوقها الخاص ، وهذا أمر أدركه ذوو الفهم ، وأرباب الفطن .

يقول أحمد بن أبي طاهر : (كلام العرب ملتبس بعضه ببعض ، وأخذ أواخره من

(١) - عيار الشعر ص ١٦ .

(٢) - الأبعاد النظرية لقضية السرقات وتطبيقاتها في النقد العربي القديم . د . محمد مصطفى هدار ،

مجلة فصول = تراثنا النقدي ٦م / ١٤ / ١٩٨٥ م ، الجزء الأول ص ١٣٤ .

أوائله . والمبتدع منه والمخترع قليل ، إذا تصفحته وامتحنته ، والمتمرس المتحفظ المطبوع بلاغة وشعراً من المتقدمين ، والمتأخرين لا يسلم أن يكون كلامه أخذاً من كلام غيره وإن اجتهد في الاحتراز ، وتخلل طريق الكلام ، وباعد في المعنى ، وأقرب في اللفظ وأفلت من شباك التداخل ، فكيف يكون ذلك مع المتكلف المتصنع والمعتمد القاصد (١) .

يقول إليوت : (ليس هناك شاعر أو فنان من أي نوع يكون له معنى وهو معزول ، ففحواه وقيمتها إنما يكمنان في مقدار علاقته بمن ماتوا من الشعراء والفنانين إنك لاتستطيع أن تقدره حق قدره إذا أخذته منعزلاً فلا بد أن تضعه بين الموتى للمقابلة والمقارنة) (٢) .

(١) - حلية المحاضرة في صناعة الشعر . أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر الحائمي ، تحقيق : الدكتور جعفر الكتاني ، بغداد ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، مطبعة دار الرشيد ، ١٩٧٩ م ، ج ٢ / ص ٢٨ .

(٢) - أنطونيو وكليوباترا دراسة مقارنة بين شكسبير وأحمد شوقي ، الدكتور عبدالحكيم حسان ، جده : الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ط ٢ ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

المصادر والمراجع

- ١ - البرهان في وجوه البيان . أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم الكاتب ، تحقيق : الدكتور أحمد مطلوب ، والدكتورة : خديجة الحديشي ، بغداد : مطبعة العاني ، ط / ١ ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م
- ٢ - كتاب عيار الشعر . أبو الحسن محمد بن أحمد العلوي ، تحقيق : الدكتور عبدالعزيز المانع ، الرياض : دار العلوم ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
- ٣ - الشعر والشعراء . ابن قتيبة . تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، القاهرة : دار المعارف م .
- ٤ - الموشح ، مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر ، أبو عبيد الله محمد بن عمران المرزباني ، تحقيق : علي البجاوي ، القاهرة : مطبعة لجنة البيان العربي ، الناشر نهضة مصر ، ١٩٦٥ م .
- ٥ - العمدة في محاسن الشعر وآدابه . الإمام أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ، تحقيق : الدكتور محمد قرقران ، بيروت : دار المعرفة ، ط ١ ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .
- ٦ - ديوان عنزة : تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي بيروت : المكتب الإسلامي ط ٢ ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .
- ٧ - شرح ديوان كعب بن زهير صنعة أبي سعيد السكري ، القاهرة : دار الكتب المصرية ، ١٣٦٩ هـ / ١٩٥٠ م .

٨ - الوساطة بين المتنبي وخصومه . للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني ، تحقيق وشرح : محمد أبو الفضل إبراهيم ، علي محمد البجاوي ، بيروت : دار القلم ، بدون تاريخ .

٩ - إعجاز القرآن . أبوبكر محمد بن الطيب الباقلائي .

تحقيق : السيد أحمد صقر ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٨١ م .

١٠ - بيان إعجاز القرآن للخطابي ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ، حققها وعلق عليها : محمد خلف الله ، والدكتور محمد زغلول سلام ، القاهرة : دار المعارف ط٣ ، ١٩٧٦ م .

١١ - حلية المحاضرة في صناعة الشعر . أبو علي محمد بن الحسن بن المظفر الحاقمي ، تحقيق : الدكتور جعفر الكتاني ، بغداد ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، مطبعة دار الرشيد ، ١٩٧٩ م .

١٢ - أنطونيو وكليوباترا دراسة مقارنة بين شكسبير وأحمد شوقي ، الدكتور عبدالحكيم حسان ، جده : الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ط٢ ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .

١٣ - الأبعاد النظرية لقضية السرقات وتطبيقاتها في النقد العربي القديم . د . محمد مصطفى هدارة ، مجلة فصول ، تراثا النقدي م٦ / ١٤ / ١٩٨٥ م .

١٤ - كتاب دلائل الإعجاز . عبدالقاهر الجرجاني . قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ، القاهرة : مكتبة الخانجي ، ١٩٨٤ م .

- ١٥ - تكثيف اللغة الشعرية قراءة في مبحث السرقات . سعيد مصلح السريحي ، دراسة ضمن قراءة جديدة لتراثنا النقدي ، جدة : النادي الأدبي الثقافي ، ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م .
- ١٦ - قراضة الذهب في نقد أشعار العرب . ابن رشيق . تحقيق : الشاذلي بويحي ، تونس : الشركة التونسية ، ١٩٧٢ م .
- ١٧ - الموازنة بين شعر أبي تمام والبحرّي ، أبو القاسم الحسن بن بشر الأمدي ، تحقيق : السيد أحمد صقر ، القاهرة : دار المعارف ، ط ٢ ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م .
- ١٨ - الديوان ، بشرح الخطيب التبريزي . تحقيق : محمد عبده عزام ، القاهرة : دار المعارف ، ١٩٦٤ م .
- ١٩ - ديوان طرفة بن العبد شرح الأعلام الشنتمري ، تحقيق : دريّة الخطيب ، لطفي الصقّال ، دمشق : مطبوعات مجمع اللغة العربية ، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .
- ٢٠ - ديوان حسان بن ثابت الأنصاري حققه وعلق عليه د . وليد عرفات . بيروت ، دار صادر، بدون تاريخ .